بين الفلسفة والدين

للدين فى جمهورية أفلاطون مكانة سامية، فهو ضرورة من ضرورات المجتمع وركن من أركان الحياة السعيدة، وعامل من أهم العوامل التى تبعث السكينة فى النفوس.

وهو ضرورى للفرد كما هو ضرورى للجماعة، ولهذا قسا أفلاطون على الملحد فجعل جزاءه الإعدام فى كتاب القوانين.

والإلة فى نظرية أفلاطون مثال الخير، وعلة كل ما هو جميل وخير، وهو مبدأ العلم والحق، وأشرف موضوع لنظر الفيلسوف.

أما تلميذه أرسطو فالإله عنده عقل محض متفرد بذاته، لا صلة له بالكون وهو منظمه وحافظه، اسمه الأبدى، وعمله الخلود، منزه عن الخطأ يحب الفضلاء، ويتقبل القرابين، وهو فوق كل ثناء، وفوق العلم والإدراك، لا حاجة به إلى ولى أو نصير، عرشه فى السماء، وهو أصل الحركة ومبدؤها. لا يفعل إلا الخير، ولا يفعل شيئًا عبثًا. فلا يمكن أن يكون منشئ الفوضى. عمله الأبدى علمه بذاته، وهو منزه عن العلم بالجزئيات، وإن كان واهب العقل واليد إلى الإنسان.

ومذهب أرسطو هذا أثار كثيراً من المشكلات إذ قرر أن الله مدبر للعالم دون أن يتصل به أو يكون له علم بالجزئيات، ثم قال بقدم المادة ايضًا فجعل بذلك للعالم أصلين.

وقصور راى أرسطو فى هذا الموضوع جعل تلاميذه يتفوقون فى هذه

المشكلات، ثم انصرفوا عن الإلهيات بعد أن يئسوا من حلها حلا يتفق مع العقل.

وظن الرواقيون أنهم وجدوا حلا لها فى القول بوحدة الوجود، أو وحدة العقل والمادة، أى أنه ليس هناك إلا عالم واحد وجوهر واحد هو عقل ومادة معًا، لا يمتاز أحدهما عن الآخر، إذ أن العقل يحل فى المادة دائمًا.

فلما ظهرت مدرسة الإسكندرية استخلصت مذهبها من هؤلاء جميعًا، واتجهت فى فهم الفلسفة اتجاهًا جديدًا فى نوعه امتاز بالقول بأن الفلسفة والعبادة شىء واحد لاتحاد الغاية فيهما، وهى الاتصال بالإله، وإنما الفرق بينهما فى الأساليب المؤدية إلى تلك الغاية.

وقد روى الفارابى راى الأفلاطونية الحديثة وبسط مذهبها فى كتاب تحصيل السعادة فقال: "إن القدماء كانوا يذهبون إلى أن الملة والفلسفة تشتملان على موجودات بأعيانها، وإن كان كلتيهما تعطيان علم المبدأ الأول للموجودات؛ والغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان، وهى السعادة القصوى، والغاية القصوى فى كل واحد من الموجودات الأخر.

كان الفارابى فى هذا راويًا ثم لم يلبث أن اصطنع هذا الرأى وجهر به فالفسلفة والدين عنده لهما هدف واحد هو تحقيق السعادة القصوى، وإن كانا يختلفان فى الوسائل المؤدية إلى ذلك.

وكان من نتائج هذا التصور أن تفلسف الفارابى فى الدين وحاول أن يؤوله تأويلا فلسفيًا.

فلأول مرة فى التاريخ نجد فيلسوفًا يضع لبعض المسميات الشرعية

مقابلات فى مذهبه الفلسفى: فالروح الأمين أو روح القدس هو العقل الفعال، والملائكة هى العقول الثوانى التى تفيض عن واجب الوجود، والملأ الأعلى أو الملكوت هو مرتبة العقول الثوانى فى مذهب الصدور، وصفات الله الأزلية هى المثل التى قال بها أفلاطون.

ويرى الفارابى أن التأويل لفهم الدين ينبغى ألا يباح للناس جميعًا، بل هو فرض على الخاصة من أهل العم "لأن سبيلهم ألا يقتصروا فى معلوماتهم على ما يوجبه بادى الرأى المشترك، بل يقصدون ما يقصدون، ويعلمون ما يعلمون عن مقدمات تعقبت غاية التعقب".

أما العامة "فينبغى أن يقتصر بهم فى معلوماتهم النظرية على ما يوجبه بادى الرأى المشترك، وأن يستعمل فى تعليمهم الطرق الإقناعية والتخيلات"

ويفرق الفارابى بين وسائل الفلسفة والدين فيقول:

"إن طرق البراهين الحقيقية منشأها من عند الفلاسفة .. وأما طرق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع فمنشأها من عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالإبداع الوحى والإلهامات ...

والبرهانيات موكولة إلى أصحاب الأذهان الصافية والعقول المستقيمة، والسياسات موكولة إلى ذوى الآراء السديدة، والشرعيات موكولة إلى ذوى الإلهامات الروحانية. وأعلم هذه كلها الشرعيات، وألفاظها خارجة على مقادير عقول المخاطبين، ولذلك لا يؤاخذون بما لا يطيقون تصوره".

ولكنا نتلقى الدين عن طريق الوحى، بينما تنهض الفلسفة على النظر العقلى، فكيف يمكن أن يتلقى الوحى الإلهى مع عقل الإنسان؟

لنبدأ أولا ببيان الوحى فى الدين ثم نعرض بعد هذا لرأى الفارابى فيه.

ورد ذكر الوحى فى القرآن فى أكثر من معنى. وفى أغلب هذه المعانى كان الوحى تعبيراً عن نوع من الصلة بين الله وأشياء أخرى. هذه الأشياء قد تكون الأرض أو السماء أو النمل أو صفوة من البشر.

والذى يهمنا هو هذه الصلة التى كانت بين الله وبين طبقة ممن أوحى إليهم من البر وهم الأنبياء.

والذى اتفق عليه معظم المفسرين هو أن هذه الصلة تكون إما إلهاماً وقذفًا فى الروع يقظة أو منامًا من غير واسطة، أو تكليمًا، أو تبليغًا بواسطة رسول من الملائكة.

والإلهام صلة روحانية لا علاقة لها بالمادة.

أما التكليم فيشعر بأنه إسماع الله أنبياءه ألفاظًا من غير واسطة.

أما الوحى عن طريق الرسول فالروح السائد فى كتب السير ينزع غالبًا إلى تصوير الملك بصورة مادية. فأحاديث بدء الوحى تمثل جبريل جسمًا حتى أنه ليهمز الأرض بعقبه فتنبع عين ماء يتوضأ منه جبريل ويتوضأ منه النبى.

وتمثله رجلا فى صورة دحية بن خليفة الكلبى، أو ذا صوت كصلصلة الجرس، أو فى صورته التى خلق عليها له ستمائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت.

وقد نزع المتكلمون فى تفسير الوحى هذه النزعة المادية. فالملائكة عندهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة.

واختلف المتكلمون فى الوحى الحاصل بسماع كلام الله من غير واسطة

أهو قديم أم حادث. ولكنهم اتفقوا على أنه كلام مؤلف من حروف مسموعة وأصوات مؤلفة.

ونحن نرى من هذا أن الرأى الدينى فى الوحى يجعله تارة روحانيًا وتارة أخرى ماديًا.

فهل سلم الفارابى بالوحى؟ وهل ذهب مذهب رجال الدين فى فهمه؟. لقد سلم الفارابى بالوحى ولكنه فهمه فهمًا خاصًا، حاول فيه التوفيق بين فكرة الوحى فى الدين وبين نظره الفلسفى.

وقد سبق أن بينا أن الفارابى جعل العقل الفعال - وهو أحد العقول العشرة المتصرفة فى الكون - مصدراً للعلم الإنسانى، وهذا العقل - فى رأيه - جوهر مفارق أى لا يلابس المادة، ويسميه الروح الأمين وروح القدس، ويرى أنه نقطة الاتصال بين العبد وربه، وهو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية.

واتصال الإنسان بالعقل الفعال، إما أن يكون عن طريق القوة الناطقة وذلك بالتأمل والنظر وعندها يكون المتصل فيلسوفًا، وإما أن يكون عن طريق القوة المتخيلة فيكون المتصل نبيًا.

وهذا الاتصال هبة للأرواح القدسية التى تستطيع أن تخترق حجب الغيب.

يقول الفارابى:

"الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم، وما فيه؛ وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس".

ولكن كيف يحدث الاتصال بين العقل الفعال وبين النفس الإنسانية عن طريق القوة المتخيلة؟

يقول الفارابى: إن للنفس الإنسانية قوى مختلفة، وهذه القوى يخدم بعضها بعضًا: فالحاسة تخدم المتخيلة، والمتخيلة تخدم الناطقة.

أما الحاسة فهى القوة التى نحس بها سائر المحسوسات الموجودة فى العالم الخارجى.

والمتخيلة هى القوة التى تحتفظ بصور العالم المحسوس المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس. ولا يقتصر عملها على ادخار الصور، بل تستحضرها عند الحاجة. ولها أيضًا قدرة على الخلق والابتكار، فتارة تخلق صوراً ذهنية تحاكى بها ما عرفته من قبل، وتارة تؤلف من أجزاء هذه الصور صوراً أخرى جديدة، أو تحللها إلى أجزائها. وقد تخلق صوراً ذهنية مبتكرة لا تماثل ولا تحاكى الصور الذهنية التى تلقتها عن طريق الحواس.

أما القوة الناطقة فهى القوة التى ترتسم فيها صور المعقولات.

"والمتخيلة فى نظرية الفارابى لها دور هام، فهى متينة الصلة بالميول والعواطف، وذات دخل فى الأعمال العقلية والحركات الإرادية؛ تمد القوى النزوعية بما يستثيرها إلى هدف معين، وتغذى الرغبة والشوق بما يدفعهما إلى السير فى الطريق حتى النهاية؛ هذا إلى أنها تحتفظ بالآثار الحسية وصور العالم الخارجى المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس.

من الصور الجديدة التى تخترعها المخيلة تنتج الأحلام والرؤى.

والذى يهمنا هنا قبل كل شىء هو أن نبين أثر القوة المتخيلة فى تكوين

الأحلام، فإنا إذا فسرنا ذلك استطعنا أن نفسر النبوة، لأن الرؤيا الصادقة نوع من النبوة، والفرق بينهما نسبى لا غير.

عقد الفارابى فى كتابه "آراء المدينة الفاضلة" فصلين متتاليين؛ أحدهما "فى سبب المنامات"، والآخر "فى الوحى ورؤية الملك"؛ وفى هذا ما يبين الصلة بين هذين المبحثين.

بدأ بالكلام عن الأحلام فبين أن المخيلة فى حالة النوم لا تشغلها قوى النفس الأخرى كما تشغلها أثناء اليقظة، ولهذا تفرغ لبعض الظواهر النفسية فتخلق صوراً جديدة، أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة، متأثرة فى ذلك ببعض الإحساسات والمشاعر الجسمية، أو العواطف النفسية والمدركات العقلية. فأحوال النائم العضوية والنفسية وإحساساته ذات أثر واضح فى مخيلته، وفى تكوين أحلامه. واختلاف الأحلام إنما يرجع لاختلاف العوامل المؤثرة فيها، فصاحب المزاج الرطب يحلم بما يشابه ذلك كالماء والسباحة فيه. وكثيراً ما مثلت الأحلام تحقيق رغبة مكبوتة أو الفرار من أمر بغيض؛ وقد يتحرك الإنسان أو بعض أعضائه أثناء نومه تلبية لعاطفة خاصة. فالميول الكامنة فى النفس، والإحساسات القديمة وكذلك الإحساسات التى تصاحب الحلم لها أثر عظيم فى تكييف الأحلام.

"وهذه الملاحظات على بساطتها تشبه بعض الشبه النتائج العلمية التى وصل إليها علماء النفس المحدثون أمثال فرويد وهارفى وموري، وهم ممن اشتغلوا بدراسة الأحلام وتحليلها.

"والقوة المتخيلة التى تستطيع أن تحدث كل هذه الصور، نستطيع أيضاً أن تشكلها ابشكل العالم الروحانى؛ فيرى النائم السموات ومن فيها، ويشعر

بما فيها من لة وبهجة. وفوق هذا قد تتصل هذه القوة بالعقل الفعال وتتلقى منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية، وبذا يكون التنبؤ" .

وقد يحدث هذا الاتصال أثناء اليقظة كما يحدث أثناء النوم.

يقول الفارابى:

"إن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان ما قوية جدًا، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها، ولا يستخدمها للقوة الناطقة، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضًا أفعالها التى تخصها، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين فى وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها وقت النوم . . . اتصلت بالعقل الفعال، وانعكست عليها منه صور فى نهاية الجمال والكمال. وقال الذى يرى ذلك إن الله عظمه جليلة عجيبة، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شىء منها فى سائر الموجودات أصلا.

"ولا يمتنع إذا بلغت قوة الإنسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية. وهذا هو أكمل المراتب التى تنتهى إليها القوة المتخيلة، والتى يبلغها الإنسان بهذه القوة" .

ونحن نرى من هذا أن نظرية الفارابى يف الوحى تخالف نظرية المتكلمين من ناحيتين:

الأولى - أن الملك عنده جوهر مفارق للمادة، لا يتلبس بها بأى وجه

من الوجـوه، وهو عند المتكلمـين جـسم لطيف قـادر على التـشكل بأشكال مختلفة.

هذا إلى أن فكرة التجسـيم عند الدينيين تجعل للملك جسمًا له حـقيقة ذاتية فى الوجود الخارجى حتى أتيح للنبى ولغيره من الصحابة أن يروا الملك، بينما يؤول الفارابى هذا التجسيم بحيث يجعله انفـعالا نفسانيًا لا غير، تخلعه القوة المتخـيلة على الإنسان فيراه رؤية المحـسوسات دون أن يكون محـسوسًا بالفعل، وهذا الانفعال من خصائص النبى وحده، فهو يرى ما لا يراه غيره.

الناحية الثانية - هى أن الفارابى أجـاز الاتصال بالوحى أو العقل الفعال لغير الأنبياء بطريق كسى، فيمكن أن يتصل به طبقات من الناس يتفاوتون فى مراتبـهم وفى دوام صلتـهم به وفى نوع المعلومات التى يتلقـونها منه، بيـنما الرأى الدينى فـى الوحى ينزع إلى أنه لا يكتـسب بـالرياضـات والمجـاهدات والتأمل والنظر، بل يختـص الله برحمته من يشـاء من عباده، فالنبـوة رحمة وموهبة متعلقة بمشيئة الله لا غير.

* * *